الطريق إلى حطين والقدس

إحياء الذكرى بعد ثمانية قرون

أحمد صدقي الدجاني

Bibliotheca Alexandrina
0130767

دار البشير
للنشر والتوزيع

الطريق إلى حطين والقدس

إحياء الذكرى بعد ثمانية قرون

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٩٢م

٩٥٦,٣٢٢١
احـم أحمد صدقي الدجاني
الطريق إلى حطين والقدس/ أحمد صدقي الدجاني .ـ
عمان : دار البشير، ١٩٩١م.
(٧١) ص.
ر.أ (٦٠٨/١١/١٩٩١)
١ـ فلسطين ـ تاريخ ٢ـ القدس ـ تاريخ
أـ العنوان .
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

بناية الددو
مقابل البنك العربي ـ العبدلي
عمان ـ الأردن

دار البشير
للنشر والتوزيع

هاتف [٦٧٠٢٣٠] ـ [٦٦٤٤٢١]
ص. ب [١٨٣٩٨٢] ـ [١٨٢٠٧٧]
تلكس: ٢٣٧٠٨ / بشير

Al Dado Building
Opposite of Arab Bank
Amman - Jordan

Dar - Albashir
For Publishing & Distribution

(670230) - (664421)
O. Box (183982) - (182077)
Telex 23708 Bashir

الطريق إلى حطين والقدس

إحياء الذكرى بعد ثمانية قرون

أحمد صدقي الدجاني




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبارك أرض فلسطين. والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وخاتمهم محمد بن عبد الله.

أما بعد، فهذه أحاديث بدأت كتابتها في صيف عام ١٩٨٧ الميلادي بمناسبة مضي ثمانية قرون ميلادية على يوم حطين ويوم القدس، وهما يومان مجيدان من أيامنا العربية الإسلامية.

كان نصب عيني وأنا أكتب أن أُبشِّر بصحوة رأيت تباشيرها تحـدث في أوسـاط أمـتنـا في مواجهـة الغـزوة الصهيونية الاستعمـارية. وقـد أقبلت على التعـريف بهـذه الصحـوة في محاضراتي وكتاباتي متطلعاً إلى أن تتجسد في فلسطين المحتلة. وشاء الله سبحانه أن يعطي يوم التاسع من كانون أول ـ ديسمبر من عام ١٩٨٧ شرف مولـد الانتفـاضة الفلسطينية فيه، فيصبح هو الآخر من أيامنا العربية الإسلامية المجيدة.

لقد دعتني الانتفاضة إلى متابعتها بحديث أُسبوعي أكتبه، فتوقفت عن مراجعة تاريخ جهادنا في مواجهة حملات الفرنجة، ومنّيت النفس أن استكمل هذه الأحاديث فكان أن أجلّتْ إصدراها في كتاب. وتحوّلت إلى إصدار ثلاثة كتب عن الانتفاضة هي «الانتفاضة الفلسطينية والصحوة العربية» و«الانتفاضة الفلسطينية والتحرير» و«الانتفاضة الفلسطينية وإدارة الصراع». وبدا لي وأنا أُحضِّر الكتاب الرابع للنشر بعد «زلزال الخليج» أنه قد آن الأوان لإصدار هذه الأحاديث في كُتيّب يحمل العنوان الذي اخترته لها وهو «الطريق إلى حطين والقدس» ليأخذ مكانه بين كتبي التي تضم «إسبوعياتي» كمبشّر بالانتفاضة من خلال قراءة معاصرة لحروب الفرنجة تستحضر عبر التاريخ لإحسان التعامل مع الحاضر وصنع المستقبل. والله ولي التوفيق

صيف ١٩٩١م مطلع ١٤١٢هـ

١ ـ عن إحياء ذكرى يوم حطين

ابدأ بكتابة هذه السطور بعد البسملة فجر يوم الرابع من تموز ـ يوليو من عام ١٩٨٧ الميلادي في ذكـرى «يوم حطين» الذي حدث قبـل ثمـانية قرون، وقـد أمضيت ساعـات طويلة خلال الشهور الثلاثة الماضية أقرأ كل ما تقع عليه يداي من كتب عن حروب الفرنجة ـ وهو كثير كثير ـ وأتأمل في أحداث هذه الحروب على ضوء أحداث عصرنا.

أبدأ بالكتابة ونصب عيني ذكرى «يوم القدس» في الثاني من تشرين الأول ـ اكتوبر القادم. وبين اليومين ثلاثة شهور صيفية حفلت بالأحداث في عام ١١٨٧ الميلادي، فكانت من فترات التاريخ الفاصلة التي تستحق الدراسة المتعمقة.

أبـدأ الكتـابة وفي نيتي أن أُسطِّر عصارة قراءاتي وتأملاتي أداءً لواجب الاسهـام في إحياء ذكرى مضي ثمانية قرون على يومي حطين والقدس. وهو واجب يتحمل كل مُنتمٍ إلى الحضارة العربية الإسلامية نصيبه منه.

* * *

إن حاجتنا لهذا الاحياء ملحة، كي نحقق تواصل المعرفة التاريخية لأجيالنا الجديدة، ومن أجل أن نوفر لأنفسنا الحد الأدنى اللازم منها. والحق أن ما نعرفه عن حروب الفرنجة التي امتدت حوالي قرنين بفعل غزوهم لوطننا أقل بكثير مما ينبغي أن نعرفه عنها. وذلك لأن مناهجنا التعليمية في المدارس لا تعطيها حقها، ولأن مساجدنا تكتفي بالعموميات، ولأن صحافتنا تمر بها مرور الكرام، ولأن محافلنا تخصص لها القليل. وهكذا بقي ما تعرفه الغالبية العظمى منّا عن هذه الحروب عاماً لا تغنيه التفاصيل، وهو يتضمن شيئاً عن يومي حطين والقدس ولكنه لا يوفيهما حقهما ولا يتطرق إلى أيام أخرى قبلهما وبعدهما، كما أنه يحتوي على القليل عن صلاح الدين ولكنه لا يتمثل سيرته ويكاد يجهل كل شيء عن نجومنا الأخرى من أبطالنا التي سطعت في سماء تلك الحروب.

مطلوب إذن أن نولي إهتماماً خاصاً لِهذه الحقبة من التاريخ. فهي في تاريخنا العربي الإسلامي متميزة، ولعلها تحتل المكان التالي لحقبة البعثة والخلافة الراشدة. وهي بمنظور أحداث عصرنا ومواجهتنا للغزو الصهيوني الغربي تكتسب أهمية مضاعفة. ومن هنا ينبغي أن يعرف كل منا أحداثها ويحفظ سير أبطالنا فيها وبخاصة سيرة صلاح الدين واسطة العقد وشمس الشموس.

لقد أدرك العماد الكاتب الأصفهاني وهو يقدّم لتاريخه «الفتح القسي في الفتح القدسي» مكانة هذه السيرة، فشبهها بالهجرة النبوية التي أرّخ بها المسلمون، واعتبرها هجرة ثانية لأنها «هجرة الإسلام إلى بيت المقدس»، وأرّخ بالفتح القدسي ليحفظ لنا تاريخاً مجيداً. وكان الأصفهاني واعياً أهمية التاريخ للبشر «فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول، إلاّ ولهم تاريخ يرجعون إليه، ويعولون عليه. ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها. تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام. ولولا ذلك لانقطعت الوُصَل، وجهلت الدول، ومات في أيام الأُخر ذكر الأول. ولم يعلم الناس أنهم لعرق الثرى، وأنهم نُطف في ظلمات الأصلاب طويلة السرى. وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم لآدم. وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم لما أرادوه من ظهورهم. . . . ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة. ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها. وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء كهولتها من صعوبتها».

ويدرك عدونا الصهيوني اليوم بمنظور أحداث عصرنا الأهمية المضاعفة لهذه الحقبة. ولذا نراه مشغولاً بدراستها، ويصل الأمر به إلى أن يحيى ذكرى يوم حطين على طريقته كي

لا يغفل عن أهمية التاريخ، ويحاول الاستفادة من دروسه وعبره في ما يخططه من عدوان وما يقترفه من جرائم.

ماذا نستهدف من قراءة تاريخ حروب الفرنجة اليوم؟

هناك أولاً الهدفان الثابتان من كل قراءة تاريخية. أعني المتعة والفائدة. وهناك ثانياً هدف التفكر في أحوالنا الراهنة والتأمل في أحداث عصرنا وصولاً إلى بلورة أفكارنا بشأن ما ينبغي عمله في مواجهة الغزو الصهيوني الغربي لوطننا.

يطول الحديث في وصف متعة قراءة تاريخ هذه الحقبة وتقدير فائدة هذه القراءة بعامة وفي خدمة التفكير والتأمل بخاصة. وحين أنظر في تجربتي خلال الشهور الثلاثة الماضية، أُلاحظ أنني كنت كثيراً ما أنسى نفسي وأنا عاكف على الكتب فاتجاوز الوقت المحدد للقراءة بساعة أو ساعتين. وأُلاحظ أن مشاعري كانت تثور وتفيض، وكم اغرورقت عيناي بالدموع تأثراً بمعانٍ عظيمة وملكني الغضب انفعالاً أمام أفعال خسيسة. وأُلاحظ أن عقلي كان يفكر بحيوية ونشاط مبلوراً الأفكار الفاعلة.

سؤال رئيسي كانت الإجابة عليه نصب عيني وأنا أقرأ وأتأمل. وهو السؤال الرئيسي الذي نضع الإجابة عليه نصب أعيننا في إحيائنا لذكرى يومي حطين والقدس.

ما هو العامل الأساسي في انتصارنا في هٰذين اليومين وفي نجاحنا في إفشال الغزو الفرنجي؟

لقد اجتهدت في الإجابة عن هذا السؤال حين طُرح عليّ في ندوة فكرية مؤخراً ويمكن أن أوجز الإجابة بأن الانتصار حدث حين أفاقت الأمة وصحت ووطّنت نفسها على صراع النفس الطويل ورفعت راية الجهاد وحولت حياتها على مختلف الصُعد وفقاً لمتطلبات الحرب وتوحدت شعباً زرّاعاً وصنّاعاً وتجّاراً وأهل قلم وأهل سيف وقادةً على هدف طرد الغزاة وتلاحم الناس مع قيادتهم المجاهدة وكلهم ثقة بها. وكان واضحاً لدي أن هناك عوامل كثيرة تفاعلت في صنع هذا العامل الأساسي، يتصل بعضها بنا وبعضها الآخر بالعدد، وتتأثر بالعالم المحيط آنذاك. وكم هو مفيد أن نقف أمام هذه العوامل بعد أن نستحضر ما حدث في تلك الحقبة.

* * *

الخطوة الأولى في إحياء ذكرى يومي حطين والقدس إذن هي استحضار أحداث حقبة حروب الفرنجة فأين نجد هذه الأحداث مكتوبة وكيف نقرأها؟

إن المصادر كثيرة ومتنوعة. فيها ما هو قديم وفيها ما هو

حديث. ومنها ما هو عربي إسلامي ومنها ما هو غربي. فيها ما يسلِّط الأضواء على الحياة الاجتماعية وعلى الحياة الأدبية وعلى المعارك العسكرية وعلى التحركات السياسية وعلى الحكام وعلى القادة وعلى العلماء. ومنها ما يأخذ صورة التأريخ أو التحليل التاريخي أو جمع الوثائق التاريخية. وقد وجدت نفسي حين توجهت لقراءة تاريخ تلك الحقبة أمام كتب تعد بالعشرات. وكم استمتعت وأنا أنتقل بين المؤلفات القديمة والمؤلفات الحديثة وبين العربي الإسلامي منها والغربي.

تقدم هذه المصادر صورة حية لحقبة حروب الفرنجة. ولعل من أبرز ما رأيته في هذه الصورة مما يساعدنا على فهم واقعنا اليوم، هو وجود تيارات صاعدة وأخرى هابطة فيها. وظهور خطين متلازمين متناقضين يمثل أولهما سلسلة حلقات من الحديد الصدىء، ويمثل الآخر سلسلة حلقات من الحديد الصلب المسقي المطلي بالذهب. وقد حدث الانتصار حين قويت التيارات الصاعدة وتغلبت السلسلة الأخرى.

* * *

لقد استوجب هذا الانتصار خوض معارك طاحنة خلال قرنين من السنين. وإذا كان يوما حطين والقدس قد حظيا باعظم هذه المعارك فإن هناك أياماً قبلهما وأخرى بعدهما تستحق أن توصف

معاركها بأنها كانت عظيمة ومن واجبنا أن نستذكرها ونستحضر أحداثها. وهذا ما نبتغيه من إحياء ذكراها.

حين بزغ فجر يوم السبت الرابع من تموز ـ يوليو من عام ١١٨٧ ميلادي، كان الفرنج قد آووا بجيوشهم إلى تل حطين غربي طبرية، وأمضوا ليلتهم في بؤس يستمعون إلى تكبير المسلمين وتهليلهم، وقد أخذ منهم العطش مأخذه ولفحتهم حرارة النار التي أشعلها المسلمون في الأعشاب الجافة على التل، وغشيهم الدخان الساخن. وكان صلاح الدين قد حرك رجاله وأتم تطويق جيش الملك الفرنجي. وما أسرع ما بدأ هجومه مع إشراقة أول ضوء. واجتمع على الفرنجة «العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال». وقد أسهب الأصفهاني في وصف المعركة ببيانه المتميز، وتناولها آخرون بالعرض والتحليل، ودخلت معركة حطين التاريخ كواحدة من أبرز المعارك الفاصلة، وخلد يوم حطين.

كانت الطريق إلى حطين والقدس طويلة، وكان السير فيها حافلاً بالمشقة بعد أن نجح الغزو الفرنجي في احتلال القدس عام ١٠٩٧م. وحرّر صلاح الدين القدس بعد تسعين عاماً وطهرها من رجس الاحتلال. فلنتتبع هذا السير مرحلة مرحلة، ولنعش مع ذكرى يومي حطين والقدس لنشق طريقنا إلى حطين والقدس.

٢ ـ عن العدوان الفرنجي

شهد يوم حطين «السبت الرابع من تموز ـ يوليو ١١٨٧م» انتصار صلاح الدين على الفرنج في معركة فاصلة. وكان ذلك بعد مضي تسعة عقود على قيام الفرنج بالعدوان على وطننا. وقد حفلت هذه الفترة بالأحداث، وشهدت أياماً مهدت ليوم حطين. وإن لنا أن نقف بداية أمام هذا العدوان الفرنجي لنتعرف على ماهيته وأسبابه وظروفه وفظاعته، وفي اعتبارنا أحداث عصرنا والعدوان الصهيوني علينا.

تمثل هذا العدوان الفرنجي بحروب شنّها الفرنجة الأوروبيون علينا. وقد أطلقوا هم على هذه الحروب اسم «الحروب الصليبية» نسبة إلى علامة الصليب التي اتخذوها شعاراً لهم. أما أجدادنا فقد عرفوها باسم «حروب الفرنج» نسبة إلى القوم الذين تولوا كبرها. وقد تحدثوا عن «الفرنج» أو «الفرنجة» أو «الافرنج» في تواريخهم.

ونحن نرجح استخدام هذا الاسم، ولذلك نتحدث عن العدوان الفرنجي. والفرنجة هم سكان البلاد التي نعرفها اليوم

باسم فرنسا. ويلاحظ ديورانت صاحب «قصة الحضارة» أن الحرب الصليبية الأولى كانت في الأغلب الأعم مغامرة فرنسية. ومن أجل ذلك ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم يسمى غرب أوروبا بلاد الفرنجة (الافرنج). وهذه ملاحظة دقيقة فنحن لا نزال نستخدم هذه التسمية التي ورثناها عن أجدادنا.

لقد حدث الأعلان الأول لهذه الحروب في مدينة كليرمونت في مقاطعة اوفرني بجنوب فرنسا خريف عام **١٠٩٥**. وكان الذي أعلن هو البابا «أربان» الثاني الفرنجي واستخدم لغة الفرنجة حين ألقى «أقوى خطبة في تاريخ العصور الوسطى الأوروبية».

تكشف لنا هذه الخطبة التي هي إعلان حرب عن أفكار قائلها وتسلط أضواء على دوافعه. فهو يخاطب «شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار!» فيتحدث له عن الأخبار المحزنة التي جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية تعلن «أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله؛ قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين...» وهو يستثير فيهم فضلاً عن عاطفتهم الدينية، حميتهم بذكر أمجاد شارلمان وعظمته «وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم». ويعمد بعد ذلك وبصراحة كاملة إلى إثارة أطماعهم وترغيبهم بخيرات وطننا وتحريضهم على انتزاع أراضينا منّا. «لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم.

ذلـك بأن الأراضي التي تسكنوها الآن ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين تحيط بها من جميع جوانبها البحار والجبال وتكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ويلتهم بعضكم بعضاً وتتحاربون. طهِّروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضـريح المقدس. وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملّكـوهـا أنتم. وإن أورشليم أرض لا نظير لهـا في ثمـارهـا، هي فردوس المبـاهـج». وهو يختم خطبته بعد هذه المصـارحـة بتـرغيبهم بالغفـران «قـومـوا بهـذه الـرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بانكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يغني في ملكوت السموات».

حين ننظر في ماهية هذه الحروب نجد أنها عدوان فرنجي له أطمـاع معلنـة. وحين ننـظر في أسبابه نجد أن عدة أسباب تفاعلت معاً لتنضجه. وما أكثر ما كتب عن ما هو مباشر من هذه الأسباب وما هو غير مباشر. وأول سبب مباشر هو بروز قوة الاتراك السـلاجقـة في الشرق الذين زودوا الخلافة العباسية في بغداد بدماء جديدة، وانتصر سلطانهم الثاني ألب ارسلان على الروم البيزنطيين انتصاراً ساحقاً في معركة ملاذكرد الفاصلة يوم الجمعة ٢٦ آب ـ أغسطس ١٠٧١م الموافق سنة ٤٦٣هـ. وكان السبب المباشر الثاني هو ما حاق بالامبراطورية البيزنطية من ضعف بعد

أن عُمِّرت سبعة قرون. وقد حاول الامبراطور الكسيوس كومنين أن ينقذ الامبراطورية بعد هزيمتها في ملاذكرد، وكتب إلى البابا اربان الثاني يستحث أوروبا اللاتينية لتساعدهُ على صد هجمات الترك السلاجقة. ونلاحظ أن خطبة البابا تضمنت الإشارة إلى هذين السببين المباشرين.

كانت أوروبا تشهد تحولات في تلك الفترة ولّدت أسباباً أخرى. فقد برزت المدن الأوروبية والإيطالية منها بخاصة على مسرح الأحداث، وتزايدت مصالحها التجارية، فتطلعت إلى السيطرة على طرق التجارة التي تمر بوطننا. وأراد كبار الاقطاعيين ملوكاً ودوقات وكونتات وبارونات أن يوسعوا أملاكهم ويضاعفوا ثرواتهم. كما حلم الفرسان من صغار الاقطاعيين بالحصول على أراضٍ زراعية في وطننا. وكان نظام الوراثة المتبع في أوروبا يحرم أبناء الاقطاعيين من التركة التي تؤول إلى الابن البِكر وحده. وتطلعت الكنيسة التي كانت تخوض معركة شرسة ضد الملوك الزمنيين إلى فرض سيطرتها ومدّ سيادتها على الكنيسة الشرقية المنشقة عنها. ونلاحظ أن إشارات لكل هذه الأسباب وردت في خطبة البابا التي تذكرنا بكتابات الصهيونية غير اليهودية في القرن الماضي ثم بكتابات الصهيونية اليهودية وأشهرها كتاب هرتزل الدولة اليهودية وبتصريح بلفور.

كان الباب اربان الثاني هو الذي اختار علامة الصليب شعاراً

لهـذه الحـروب. فقـد علت أصوات الجمع الذي استمع إلى خطبتـه وهي تردد «تلك إرداة الله»، فردد هو بدوره النـداء وأمر الـذاهبين إلى وطننا أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهـم. وظـل يتنقـل تسعة أشهر داعياً للحرب، ونجح في اتخاذ مجموعة اجراءات مكنت من توحيد أوروبا على العداون.

لقد استطاع هذا العدوان أن يغير من طبيعة العلاقات التي كانت قائمـة بين وطننـا والحجـاج الأوروبيين الـذي يقصدون القدس. فمنذ أن حرَّر الفتح الإسلامي القدس وأعطى الخليفة الثـاني عمـر بن الخـطاب رضي الله عنـه العهـد لأهلهـا وهذه العـلاقـات سلمية تمتـع في ظلهـا الحجاج الأوروبيون بالأمن وحققوا أهدافهم الدينية والتجارية.

شخصيات كثيرة برزت على مسرح الأحداث في تلك الفترة مع أربـان الثـاني. وفي مقدمة هؤلاء بطرس الناسك الذي قاد جحفـلاً من الفـلاحين المتـطوعين القلقين الجهلاء في مارس ١٠٩٦، وسـار بهم حتى القسـطنطينية فكانوا كالجراد المنتشر يخرِّبون كل مكان يحلُّون فيه. وانتهى الأمر بإبادتهم حين زحفوا على نيقية وتصدى لهم الأتراك بعد أن تركهم قائدهم اشمئزازاً مما اقترفوه، وأقام في القسطنطينية حتى عام ١١١٥م. ومن هؤلاء وُلْتر المفلس الـذي كان من بين القتلى. ولم يلبث أن برز الـدوق

جدفـري وأخوه بلدوين والكونت بوهيمند ومعه ابن أخيه تانكرد والدوق روبير دريموند. وسار هؤلاء من طرق مختلفة بجموعهم إلى القسطنطينية أواخر ١٠٩٦م.

لقد حفظت لنا كتب التاريخ تفاصيل ما حدث لهذه الحملة الفـرنجية الأولى. ويقف المـرء أمـام الـوضـع الـذي وجد فيه الامبـراطور البيزنطي الكسيوس نفسه حين وصلت الحملة إلى أبـواب القسطنطينية. فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار. فهو الذي كتب في رسالة إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة حوالي عام ١٠٨٨ «ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية في حوزتكم وليست في حوزة الأتـراك»، ولكنـه بعـد أن عانى الأمرّين من جحافل الفـلاحين اعتمد الحذر الشديد من القادمين، وعمل ما بوسعه ليصـــرفهم عن القســطنــطينية إلى قتـال الأتـراك السـلاجقـة المسلمين. وقـد أغـراهم بالاعطيات السخية ليقسموا له يمين الولاء. والتقى هؤلاء قرب قونية بجيش تركي يقوده قلج ارسلان، فانتصروا عليه صيف ١٠٩٧.

وهكذا زحفت الحملة باتجاه انطاكية مخترقة الأناضول. ولم يلبث أن افترق عنها تنكرد وبولدوين واتجها إلى الرها في أعماق آسيا الصغرى حيث أسس بولدوين «بالقتل والغدر أولى الإمارات الـلاتينية في الشـرق» عام ١٠٩٨ كمـا يقـول ديورانت. وكان

يحكمهـا حاكم أرمني فتنـازل له عن حكمهـا. واتجهت بقية الحملة جنوباً إلى انطاكية التي وصفها مؤرخ فرنجي «بأنها مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن»، فحاصروها. وقاومت انطاكية الحصار ثمانية أشهر، ثم سقطت. وما أسرع ما اندفع الفرنجة باتجاه القدس واحتلوها صيف عام ١٠٩٩.

كيف استطاع الفرنجة أن ينفذوا إلى بيت المقدس في قلب الدولة العربية الإسلامية؟

إن نظرة على أوضاع المشرق الإسلامي آنذاك تساعدنا على الإجابة عن هذا السؤال. فقد كانت في بلادنا خلافتان الأولى وهي العباسية في بغداد والأخرى هي الفاطمية في مصر. وكانت دولة السلاجقة التي سيطرت على الأولى وأمدتها بدم جديد قد تفتت إلى عدد من الإمارات بعد وفاة سلطانها ملكشاه. واحتدم الصراع بين الخلافتين من جهة، وبين أمراء ووزراء كل منهما من جهـة أخـرى. وأورث الصـراع الجميع الضعف. ومكّن هذا الضعف للفرنجة من أن ينفذوا.

لقد تحدث المؤرخون المسلمون عن هذه الأوضاع. ومن هؤلاء ابن الأثير في كتـابـه «الكـامـل في التاريخ»، فذكر «أن أصحـاب مصر من العلوين (أي الفاطميين) لمّا رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها من استيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم

يبق بينهم وبين مصـر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول أقسيس (أحد القادة السلاجقة) إلى مصر وحصرها خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم». ويلفت نظرنا في حديث ابن الأثير عن الفرنج أنه يتحدث عن أطماعهم في كل بلاد المسلمين وبخاصة أفريقيا، ويشير إلى استيلائهم على طليطلة وغيرهـا من بلاد الأنـدلس ثم قصدهم صقلية وتطرقهم إلى أطراف أفريقية. ويذكر أن روجر ملك صقلية زيّن للفرنجة أن يقصدوا بيت المقدس ويتركوا أفريقية لأنه أبرم عهوداً بينه وبين أهلها، «فتجهزوا وخرجوا إلى الشام»، وباشروا عدوانهم علينا.

إننا حين نقرأ تاريخ هذا العدوان اليوم وفي اعتبارنا أحداث عصرنا والعدوان الصهيوني علينا الذي نعيشه لحظة لحظة ندرك بشكل أفضل ماهية حروب الأمس وحروب اليوم وأسبابها. ويبدو لنـا ما بين العـدوانين من مشـابهـة. وليس هذا بغـريب فهناك مجموعة ثوابت حكمت كلاً منهما.

إن عظمـة يوم حطين كامنـة في أنـه قصم ظهـر العـدوان الفرنجي، فمسح مرارات ما سببته من معاناة لنا، وما أنزله من نكبة بنا. وحديث النكبة يستحق وقفة.

٣ ـ عن نكبة سنة ١٠٩٩م ـ ٤٩٢هـ

توج انتصار صلاح الدين «يوم حطين» لخمس بقين من ربيع الآخرة ٥٨٣هـ بتحريره القدس «يوم القدس» في ٢٦ رجب ٥٨٣ ـ ٢ تشرين الأول ـ اكتوبر ١١٨٧م. ولقد كان تحرير القدس هو رمز الانتصار وذروته تماماً كما كان سقوط القدس في أيدي الفرنج هو رمز النكبة وذروتها سنة ١٠٩٩م ـ ٤٩٢هـ. ويا لها من نكبة فالقدس هي الرمز، أمس واليوم. وكم يتأثر قارىء تاريخ حروب الفرنجة وهو يقرأ رسائل صلاح الدين إلى عاصمة الخلافة وحواضر الدولة عن فتح القدس، الذي كان البلسم الوحيد لما أصاب أمتنا يوم نكبتها. ويتداعى إلى الخاطر ما حدث في ذلك اليوم.

* * *

الحديث عن تلك النكبة التي حلت بوطننا العربي الإسلامي حافل بالمرارات. وهو يذكرنا نحن الذين عشنا نكبة سنة ١٩٤٨م بثوابت تحكم أمس واليوم.

نختار ما أورده ابن الأثير عن «مُلك الافرنج ـ لعنهم الله ـ

البيت المقدس» في كتابه «الكامل في التاريخ».

«. . . فقصده الافرنج بعد أن حصروا عكّا فلم يقدروا عليها. فلما وصلوا إليه حصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صِهْيوَن، وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به. فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد مُلكت من الجانب الأخر، وملكوها من جهة الشمال منه ضَحوة نهار يوم الجمعة ٢٢ شعبان. وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة إسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود (وهو برج في قلعة القدس) فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم. ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموقع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة (التي بُني عليها مسجد عمر) نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ٣٦٠٠ درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة ومن المذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء. وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان

كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب. وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا. وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا. واختلف السلاطين على ما نذكره، فتمكن الفرنج من البلاد».

هكذا تحدث ابن الأثير عن النكبة في ذروتها. ولنا أن نقف متأملين أمام إشاراته وبخاصة آخرها التي تحمل في طياتها اقتران تمكن الفرنج من البلاد باختلاف سلاطين البلاد. ونلاحظ أن النكبة ككل نكبة تضمنت الخسائر في الأرواح وفي الأموال، وأن ابن الأثير يخص بالذكر بين خسائر الأرواح جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم بمن فارق الأوطان وجاورَ بذلك الموضع الشريف، ونتأمل في صورة اللاجئين حين وصلوا إلى بغداد ووصف ابن الأثير لما قالوه عن النكبة في الديوان مما أبكى العيون وأوجع القلوب.

نختار أيضاً مما أورده المؤرخون الفرنجيون ما قاله القس ريمند الإجيلي أحد شهود العيان لما حدث.

«وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قُطِّعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقُتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذّبون عدّة أيام،

ثم أُحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام. وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل». وقد روى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى كما أورد ديورانت «فالنساء كنّ يُقتَلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار. أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد. وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة. أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأُشعلت فيهم النار وهم أحياء. واحتشد المنتصرون في كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت في يوم ما «المسيح المصلوب» وأخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجاً بالنصر، وبتحرير المدينة».

* * *

لم تكن جرائم الفرنجة التي اقترفوها في القدس أول جرائمهم. فقد سبقتها جرائم أخرى تتالت حلقاتها وبدأت أولى هذه الحلقات مع بدء الحملات. ونشير من بين هذه الجرائم إلى قيام الجموع التي تحركت عام ١٠٩٦ بقتل كثيرين من يهود المانيا وبوهيميا ثم بسلب ونهب سكان البلاد التي مروا بها. كما نقف أمام النكبة التي حلت بانطاكية حين سقطت بأيدي الفرنجة يوم ٣ حزيران يونيو ١٠٩٨ بعد أن قاومت الحصار ثمانية أشهر.

وقـد دخل الفرنج البلد بفعل خيانة زرّاد (صانع دروع) «فنهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين». ونتأمل في نهاية صاحب انطاكية ياغي سيان الذي «ظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره» ولكنه حين علم بنفاذ الفرنج إلى المدينة «دخله الرعب وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً هائماً على وجهه» وتبعه نائبه، «ولما طلع النهار عليه رجع إليه عقله وكان كالولهان، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ فقال لمن معه أين أنا؟ فقيل على أربعة فراسخ من انطاكية فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يُقتل. وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين. فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه، فلما سقط على الأرض أراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة فإنه كان قد قارب الموت. فتركوه وساروا عنه. واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق؛ فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بانطاكية». ونقرأ أيضاً ما فعله الفرنج بمعرة النعمان حين سقطت في أيديهم فقد وضعوا السيف في المسلمين من أهلها ثلاثة أيام فقتلوا الكثيرين وسبوا السبي الكثير.

لقد استطاع الفرنجة أن يقترفوا هذه الجرائم بسبب اختلاف الكلمة وتفرق الأهواء والصراع بين حكامنا وامرائنا، ونضرب مثلاً على هذا الحال ما جرى بعد نكبة انطاكية حين تحرك حاكم

الموصل قوام الدولة كربوقا وأقام بمرج دابق، واجتمع معه حاكم دمشق إبن تتش وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وآخـرين. «وأساء كربـوقـا السيرة فيمن معـه من المسلمين، فأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منهم أنهم يقيمون معه على هذه الحال. فأغضبهم ذلك، وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتـال وعـزمـوا على إسـلامـه عنـد المصدوقة (أي عند احتدام القتال)... » كما يقول ابن الأثير، «فلما تكابل خروج الفرنج، ولـم يبق بانـطاكية أحد منهم ضربوا مصافاً عظيماً (أي هجوماً) فولّى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة والإعراض عنهم وثانياً من منعهم من قتل الافرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولـم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم... وانهـزم كربـوقـا معهم. فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجرِ قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم أُلوفاً..».

لم تكن جرائم الفـرنـج في الـذين سالموهم منّا بأقل من جرائمهم في الذين قاوموهم، فهم لم يعرفوا أحكاماً للحرب ولم يترددوا في الخروج على الاحكام التي عرّفهم بها المسلمون. ويروي ابن الأثير كيف أخذ أهل جُبيل الأمان من الفرنج حين عجـزوا عن قتـالهم «وسلموا البلد إليهم، فلم تفِ الفرنج لهم

بالأمـان، وأخـذوا أمـوالهم، واستنقـذوهـا بالعقـوبـات وأنـواع العذاب». كما يروي كيف عجز والي عكّا زُهر الدولة الجيوش عن حفظ البلد فخرج منه «وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة».

* * *

كانت القدس حين حلت بها تلك النكبة بأيدي الفاطميين الذي حكموها قبل ذلك بعام. وقد ساروا إليها حين رأوا ضعف الأتـراك الـذين كانـوا يحكمـونهـا وحاصروها نيفاً وأربعين يوماً وملكوها بالأمان في شعبان ٤٨٩هـ ـ ١٠٩٦م فكان من سخريات التـاريخ ـ كمـا يقـال ـ أن الأتراك السلاجقة الذين جاء الفرنج ليقـاتلوهم في القـدس أخـرجهم الفـاطميون منهـا قبل وصول الفرنجة بعام.

لقد فعل الخلاف القائم بين الخلافتين الفاطمية في مصر والعباسية في بغداد فعله في إضعاف جبهتنا ومن ثم نزول النكبة بنا. ويروي ابن القلانسي كيف خاف طغتكين حاكم دمشق أن يثير انجاده صور ضد الفرنجة الذي يحاصرونها غضب الملك الأفضل في مصر لأن صور من املاكه.

فعل أيضاً تفجر الخلاف داخل كل من الدولتين فعله. ومن

أبشع صوره ذلك الذي نشب بين الوزيرين الفاطميين شاور وضرغام، وبين حاكم الشام أنر وحاكم الموصل سيف الدين بن عز الدين زنكي. وأدى ذلك في كثير من الأحيان إلى أن يستعين أطراف هذه الخلافات على بعضهم بعضاً بالفرنجة الأعداء.

وفعل خروج فئات من المجتمع على حكامهم واعتمادهم «الاغتيال» وسيلة للتخلص من معارضيهم فعله. وأورثت بعض أعمال هؤلاء الناس إحباطاً.

لقد تحدث ابن الأثير كيف حشد مودود، حاكم الموصل، جيشاً قوياً لحرب الفرنج بعد نكبة القدس. فإذا به يُغتال يوم العيد في جامع بني أمية بدمشق، فيتفرق الجيش كله. ويقول لسان حال ملك الفرنج «إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها».

ونجد ابن خلدون في كتابه «العبر. . .» بعد أن يروي أخبار الصراع بين شاور وضرغام ومقتل كثيرين من أمراء المصريين يقول «حتى ضعفت الدولة وخلت من الأعيان وأدّى ذلك إلى خرابها».

ونجد أبا شامة في كتاب الروضتين يحكي كيف تجرأ الفرنجة على شاور بعد أن استعان بهم فلم يعودوا يكتفوا بالجزية

التي يدفعها لهم. وقد أحس ملك الفرنجة بما أصاب مصر من ضعف فأراد إما احتلالها أو مضاعفة الجزية، وزحف نحوها. ولم يلبث «مري» أن احتل بلبيس وقتل سكانها وسبى نساءها، وأسر ولدين من أولاد شاور وأرسل إليه يقول كما أورد المقريزي في اتعاظ الحنفا «إن ابنك قال: أيحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها؟ نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة».

ما أشد مرارة حديث النكبة. إنه كالعلقم. وهو يذكرنا نحن الذي عشنا مرارات نكبة عام ١٩٤٨ بثوابت تحكم أمس واليوم، ومن هذه الثوابت أسباب النكبات. وقد تعرفنا عليها وسقنا أمثلة لها. ومن هذه الثوابت أسباب الانتصار الذي يمسح مرارة النكبة. وللنصر طريق لا بد من ولوجه، وقد أدركت أمتنا ذلك بعد تلك النكبة.

٤ ـ عن بداية الصحوة ونضجها

كان انتصارنا في يومي حطين والقدس عام ١١٨٧م هو ذروة مرحلة الصحـوة التي عاشتهـا أُمتنـا بعد أن حلت بها نكبة عام ١٠٩٩م على يد الفرنجة.

ظهـرت بدايات مرحلة الصحـوة هذه في أعقـاب النكبـة واستجـابـة لتحـدياتهـا، حين أفـاق البعض من ذهول الصدمة وبـاشـروا العمـل. وتمثلت هذه الصحـوة في جهـاد المعتدين والسعي لتوحيد طاقات الأمة، وكان عمادها علماء عاملون وقواد مجاهدون وحكام عادلون. وهكذا سيطرت في هذه المرحلة فكرة الجهاد وبان التوجه نحو الوحدة.

إن لكل مرحلة تاريخية رموزها من الشخوص الذين يرمزون لما فيها من إيجابيات وسلبيات. وقد خلّد تاريخ هذه المرحلة من رموز الصحوة شرف الدولة مودود، ونجم الدولة أبا الغازي، وأخاه نور الدولة بلك، وآق سُنقر البرسقي، وعماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود. ويمثل هؤلاء جميعاً حلقات في تلك السلسلة

من الحديد الصلب المذهب التي يحتل صلاح الدين واسطتها ويمثل أسطع حلقاتها.

* * *

لقد حفظ تاريخ هذه المرحلة لشرف الدولة مودود أنه تبنى فكرة الجهاد، وتنبه إلى أهمية الوحدة وسعى سعيه لتحقيقها، وأدرك واقع إمارة الرها الفرنجية وخطورتها على المسلمين وضرورة القضاء عليها.

تولى هذا الأمير الشهم إمارة الموصل سنة ٥٠٣هـ ـ ١١١٠م، وهو أخو السلطان محمد السلجوقي. وكان قد شهد في بغداد آثار النكبة التي حلت ببلاد الشام. وقد تابع أحوال إمارة الرها التي سلمها حاكمها الأرمني إلى الفرنجة فأصبحت شوكة في جنب الجسم الإسلامي نافذة إلى العمق. ولاحظ أن الفرنجة اساءوا للأرمن بالغ الإساءة، فاخذ الأرمن يتصلون بالمسلمين يسألونهم العودة. ورفع مودود راية الجهاد ونجح في جمع عدد من امراء السلاجقة بالانضواء تحتها، فاجتمع لأول مرة مع مودود «مسعود ابن أخيه السلطان وسقمان القطبي صاحب ديار بكر وابنا برسق ابكتلي وزنكي أصحاب همذان والأمير أحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب اربل وايازبن أبي الغازي بعثه أخوه

صاحب ماردين وساروا جميعاً إلى سنجار، وفتحوا عدة حصون للإفـرنج . . . » كما يقول ابن خلدون في تاريخه. وتغلغل هذا الجيش في وطننا محارباً الفرنجة المعتدين، بعد أن حاصر الرها فترة، ونازلهم ظاهر حلب ومعرة النعمان. وعبر مودود الفرات عدة مرات واتجــه جيشــه سنـة ٥٠٦هـ - ١١١٣م في اتجـاه عكّـا والقدس مهاجماً ما يصادفه من حصون الفرنجة ودخل دمشق مع بعض جنده في رمضان من تلك السنة وصلى الجمعة في جامعها مع أميرهـا طغتكين، فلمـا فرغ من صلاتـه وخرج ويده في يد طغتكين إذا برجل ينقضُّ عليه بسكين «وكان صائماً» فحُمل إلى دار طغتكين، واجتُهِد به ليُفطر فلم يفعل وقال لا لقيت الله إلا صائماً ومات من يومه رحمه الله» كما يقول ابن الأثير. وشمتَ الفرنج لمقتله ولسان حال ملكهم يردد «أن أُمّةً قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها» . ولكن مودوداً قضى شهيداً فبقي حياً عنـد ربـه، وتتـالى من يرفع راية الجهاد بعده ويعمل للتوحيد.

* * *

رفـع أبو الغازي بن أرتق راية الجهاد وهو صاحب ماردين الصغيرة المسـاحـة القليلة المـوارد، واستطاع أن يستولي على حلب عام ٥١٢هـ -١١١٩م بعـد وفـاة حاكمهـا رضوان سيء الذكر، إذ «خشي أهل حلب على بلدهم من الافرنج فاستدعوا

أبـا الغـازي وسلّمـوا له البلد»، كما يقول ابن خلدون. وتوجه أبا الغازي كما يروي ابن العديم سنة ٥١٣ـ١١١٩ لشن هجوم مفاجىء على روجر الفرنجي صاحب انطاكية، وهزمه في معركة طاحنة وقتله. ويلفت نظرنا في وصف ابن العديم للمعركة حديثه عن القاضي ابي الفضل بن الخشاب «الذي أقبل يحرِّض الناس على القتال وهو راكب على حَجُر (أي بغل) وبيده رُمح فرآه بعض العسكر فازدراه. فأقبل على الناس وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائهمه واسترهف هممهم بين الصفين فأبكى الناس وعظم في أعينهم». «وقتل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج. وكانت الوقعة يوم السبت (٢٨ يونيو) وقت الظهر». وتردد صدى هذا النصـر وبعث الخليفـة المستـرشد إلى أبي الغازي بخلعة التشريف ولقبه نجم الدين. وحارب نجم الدين الفرنجة مرة أخـرى بعد شهر. ثم عاد إلى محاربتهم سنة ٥١٦هـ يونيو ١١٢٢م ومعه ابن أخيه نور الدولة بَلَك، وثقل عليه المرض فتابع نور الـدولـة وانتصر على الفرنجي جوسلين. وأدركت المنية أبا الغازي في ١٧ رمضان ٥١٦هـ، ٣ نوفمبر ١١٢٢م بعد أن تمت على يديه عملية توحيد حلب والموصل وماردين، وبعد أن حقق للمسلمين النصـر في وقعـة البـلاطـة تلك التي قال عنهـا ابن القلانسي «وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح، لم يتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام، ولا الأنف من الأيام».

* * *

تابع نور الدولة بَلَك رفع راية الجهاد بعد وفاة أخيه أبي الغازي فخاض عدة معارك ضد الفرنجة وهزم قائدهم جوسلين، ثم أصابه سهم قاتل سنة ٥١٨هـ ـ ١١٢٤م، ففقد المسلمون بموته فارساً مغواراً حقق الله على يديه النصر مرات.

* * *

وتابع آق سنقر البرسقي رفع راية الجهاد حين ولّاه السلطان مسعود الموصل وحلب في تلك السنة، فسار في الناس سيرة العدل والحزم فأحبه الناس، واجتهد في إعداد الجند والتمهيد لجهاد المعتدين. ونازله الفرنجة سنة ٥١٩هـ ـ ١١٢٥م واستعاد كفرطاب. ولم يطل به العمر بعد ذلك أكثر من عام، إذ وثب به جماعة من الباطنية فقتلوه وهو يصلي الجمعة في الموصل.

* * *

نضجت مرحلة الصحوة واتصل جهاد المعتدين والعمل من أجل التوحيد. وعبّر عن هذا النضج أصدق تعبير عماد الدين زنكي القائد العظيم والحاكم العادل، الذي تولى إمارة الموصل سنة ٥٢٢هـ ـ ١١٢٨م وقد بلغ أشده وتجاوز الأربعين من عمره. وكان قد انخرط في سلك المجاهدين منذ تفتحه، وتدرج في المناصب، حتى أصبح قائداً يُعتدُّ به، هو خير خلف لأبيه آق سنقر أحد مساعدي السلطان ملكشاه الذي قُتل وابنه في العاشرة.

لقد سجل تاريخ هذه المرحلة لعماد الدين زنكي انتصاره على الفرنجة في العديد من المعارك واستعادته الرها سنة **٥٣٩هـ ـ ١١٤٤م** وقضاءه على أكبر إمارات الفرنجة وتوحيده أجزاء واسعة من بلاد الشام والعراق، قبل أن يقضي بطعنة نجلاء سنة **٥٤١هـ ـ ١١٤٧م** بتدبير من خصومه وهو في الرابعة والستين من عمره.

وهناك الكثير مما يستحق أن يحكي عن سنوات حكمه. ويصفه ابن الأثير بأنه كان «حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين قد وخطه الشيب... وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف. وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلأت أهلاً وسكاناً... وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك. وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد. وكان يقول: ان لم نحفظ نساء الاجناد بالهيبة، والا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار. وكان أشجع خلق الله. أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية، وهي للفرنج، فوصلت طعنته باب البلد وأثر فيه... وأما بعد الملك، فقد كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدها، ويريد أخذها، وهو لا يقنع بحفظها، حتى أنه لا ينقضي عليه عام إلا ويفتح من بلادهم... إلى أن ملك من كل من يليه طرفاً من بلاده».

ونتابع في تاريخ ابن خلدون عناوين فترة ولاية عماد الدين زنكي، فنقرأ «استيلاءه على حلب ثم على مدينة حماه، وفتحه حصن الاثارب وهزيمة الافرنج، وحصاره قلعة آمد واستيلاؤه على قلعة النسور... وقلاع الهكارية وقلعة كواشي وحصاره مدينة دمشق... ومدينة حمص واستيلاؤه على بعدوين وهزيمة الافرنج واستيلاؤه على حمص... وعلى بعلبك... واستيلاؤه على أكثر ديار بكر وفتحه الرها وغيرها من أعمال الافرنج.

ونقرأ ما كتبه مؤرخو العصر عن فتح الرها فنزداد إعجاباً بعماد الدين القائد العسكري الذي قصد الرها وجمع الأمراء عنده على مائدة الطعام وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه إلّا مَنْ يطعن غداً معي على باب الرها... فتقدم له صبي لا يعرف... وكان هو أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبي. ونزداد إعجاباً بعماد الدين السياسي الحاذق الواسع الأفق الذي رأى بعد انتصاره «أن تخريب البلد لا يجوز في السياسة» فأمر العساكر برد من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم. وقد استحق أن يفوز عند مؤرخي عصره باسم «اتابك الشهيد». وكم نتأثر ونحن نقرأ ما يختم به ابن الأثير حديثه عنه «وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنساناً صالحاً رأى الشهيد في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي بفتح الرها».

ونتأمل في ملامح صورة رمز نضج الصحوة، فتقف أمام مجتمع وطّن نفسه على رد العدوان ومقارعة المعتدين. ونجد أن هذا المجتمع عاش تفاعلات حادة عبّرت عن الصراع بين قوى التحرير وقوى الاستكانة، ونجح في الالتحام بالقيادات المجاهدة. ويلفت نظرنا دور القيادة الناضجة في تحقيق النصر، التي مارست وخبرت الحياة وبلورت أفكارها وأحسنت تحديد أساليبها. فعماد الدين مثلاً كان عارفاً بشؤون الجند خبيراً بسياستهم، فاجتمعت حوله أُلوف من العسكر بعضهم نظامي من العرب والأتراك والأكراد، وبعضهم غير نظامي من التركمان والبدو. وقد رأينا كيف كان يغار على نسائهم فاطمأنت نفوسهم، وكيف ألّف بينهم فأحبوه. ونلاحظ أنه أدرك دور العقيدة ودور اللسان في إحكام إنتمائهم إلى وطنهم العربي الإسلامي، وأنه أحسن معاملة الأرمن الذين عادوه بعد أن حقق النصر فألّف قلوبهم. ونقف طويلاً أما إقبال المجتمع على الإنتاج حين تميز الحاكم بالعدل؛ فإذا بالعمران يعم. وقد أعطى عماد الدين مثلاً على العدل، ومما يذكر أنه غضب على رجل من كبراء أمرائه لأنه غصب داراً ليهودي. وهكذا بدأ المجتمع الانطلاق، وتحقق انبعاثه. ومما يذكر أيضاً أنه حين فتح المعرة «حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها فقالوا إن الافرنج أخذوا كل ما لنا والكتب التي للأملاك فيها فقال

اطلبـوا دفـاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه. ففعلوا ذلـك، وأعـاد على النـاس أمـلاكهم. وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها». كما يروي ابن الأثير.

يلفت نظرنا أيضاً مجموعة الرجال الأكفاء الصالحين الذين عملوا مع عمـاد الـدين، فانتفـع بهم وبأولادهم، ونذكر منهم الحاجب الياغسياني والقاضي الشهرزوري وحافظ قلعة الموصل جقـر. ويلفت نظرنـا العلمـاء المجـاهـدون الـذين حملوا في المجتمع أمانة الدعوة إلى الجهاد وأسهموا في إحياء علوم الدين.

لقد تجسد نضج الصحوة أكثر ما تجسد في عملية التوحيد التي تحققت ومكّنت من مواجهـة العـدوان الفرنجي، وأثمرت إسقـاط إمـارة الـرهـا أكبر الإمارات الفرنجة. وكان لا بد لهذه العملية أن تستكمـل وللجهـاد أن يستمر حتى نصل إلى يومي حطين والقدس. وهذا ما فعله نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وصلاح الدين وهما يقودان مجتمعاً وطّن نفسه على تحرير وطنه، ونظّم حياته على هذا الأساس.

٥ ـ عن الحملة الفرنجية الثانية وشروق شمس نور الدين

الصحوة ولادة جديدة، وهي تحدث كما رأينا بفعل مجموعة عوامل، وحين يتهيأ جسد الأمة لها، ولا بد للصحوة أن تأخذ مداها بعد أن تحدث الإفاقة، وهي قادرة على أن تُمكِّن الأمة من مواجهة أعتى الأعاصير، وإنزال الهزيمة بأشرس الأعداء. وقد حدث هذا بين عامي **٥٣٩هـ ـ ١١٤٤م** و**٥٨٤هـ ـ ١١٨٧م**. وسطعت في سماء هذه الفترة شمسان ترمزان لها هما نور الدين وصلاح الدين. ولنا أن نتعرف على الشمس الأولى التي غابت سنة **٥٦٩هـ ـ ١١٧٤م** بعد أن خلّفت ذكرى عطرة تثير في النفس أروع المشاعر وأعظم المعاني.

* * *

تَمثل الإعصار العاتي الذي واجهنا بعد الإفاقة واستعادة عماد الدين زنكي للرها سنة **٥٣٩هـ ـ ١١٤٤م** في حملة فرنجية ثانية يسميها الغربيون الحرب الصليبية الثانية **(١١٤٦ ـ ١١٤٨)**

تولى كبر التعبئة لها برنار قس كنيسة كليرفو الذي رفعته الكنيسة إلى مقام قديسيها. وكان برنار قد سبق أن كتب بنفسه نظام جماعة فرسان المعبد (الداوية) الذين قاموا بدور خاص في الغزو الفرنجي لوطننا. وقد تعاون مع البابا يوجين الثالث الذي كان يعاني آنذاك من الخارجين عليه في رومة. وبدأ برنار بإقناع الملك الفرنسي لويس السابع وأقنعه أن يحمل الصليب، وأثار عاطفة الناس وهو يخطب فيهم ويوزع عليهم شارات الصلبان فالتحقوا بالحملة «وخلت المدائن والحصون من سكانها، ولم يبق إلّا رجل لكل سبع نساء»، كما كتب للبابا ثم انتقل برنار إلى المانيا وأقنع امبراطورها كُنراد الثاني بأن إشغال الناس بالحرب الصليبية هو سبيله لإنهاء النزاع القائم في دولته بين حزبين من النبلاء. وانضم إلى الحملة كثير من الأمراء الاقطاعيين من أعتى رجال الحرب في زمانهم.

حفل تاريخ هذه الحملة بالفظائع التي اقترفها الغزاة. وقد بدأوا مسيرتهم من المانيا بقتل عدد عظيم من اليهود هناك وإحراق دورهم ونهبها. وحين مروا ببلاد اليونان قتلوا الكثير من المسيحيين. وكان «مما أحزن فردريك ذا اللحية الصهباء ـ كما يقول ديورانت ـ أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقاة «الكفار» ـ يعني المسلمين ـ. وقد أصر كونراد على أن يسير في الطريق التي سارت فيه الحملة الأولى. ولم

يلبث أن تخبط في سيره ووقع في كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون، ودبَّ في قلوب جيشه اليأس لكثرة من هلك منهم. وجاء الجيش الفرنسي بقيادة لويس السابع فتقدم في غير حذر فخسر الكثير من رجاله ولكن لويس وصل إلى بيت المقدس ومثله كونراد، وقام الملكان الفرنسي والألماني بحشد قوات الفرنجة وزحفا بها إلى دمشق.

إن من أعظم أحداث هذه الفترة صمود دمشق أمام حصار الفرنجة لها سنة ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م وإنزال الهزيمة بهم. وقد أسهب مؤرخونا في الحديث عن هذا الحدث العظيم. ولنا أن نأخذ فكرة عمّا كتبوه. فهذا ابن القلانسي يقول في كتابه ذيل تاريخ دمشق «واختلفت الآراء بينهم ـ يقصد الفرنجة ـ فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكها، وتبايعوا ضيعها وجهاتها. وتواصلت الأخبار بذلك، وشرع متولى أمرها الأمير معن الدين أنر في التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم... ووقف المسلمون بازائهم يوم السبت السادس من شهر بيع الأول سنة ٥٤٣هـ **(٢٤ يوليو ١١٤٨م)**، ونشبت الحرب بين الفريقين... واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعُدد، وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا فيها، وقربوا من البلد... واستشهد في هذا

اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله، قرب الربوة على الماء، لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم، اتباعاً لأوامر الله تعالى في كتابه الكريم. وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى. . . واستظهر المسلمون عليهم. . . وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً. . . وكانت المكاتبات قد نفدت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وحصلت خيل التركمان تتواصل، ورجالة الأطراف تتابع. . . ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة. . . وأحاطوا بهم في مخيمهم وحول مجثمهم. . . وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى جهادهم والمسارعة إلى استئصالهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها. . . غير الرحيل سحراً يوم الأربعاء التالي مجفلين، والهرب مخذولين مغلوبين».

لقد تجسدت وحدة كلمة المسلمين في يوم دمشق هذا. ويلفت النظر فيما أورده ابن القلانسي أمور كثيرة من بينها استشهاد الفقيه المجاهد وهو مغربي، واستشهاد الصوفي الزاهد وهو شامي فلسطيني. ونقرأ في ابن الأثير وصفه لاستشهاد الفقيه المجاهد «وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن دناس

الفنـدلاوي المغـربي، وكان شيخاً كبيراً فقيهاً عالماً. فلما رآه معين الـدين وهو راجل قصده وسلّم عليه وقال له يا شيخ أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذبِّ عن المسلمين، وسأله أن يعود فلم يفعل، وقال قد بعت واشتري مني، فوالله لا اقلته ولا استقلتـه، فعنى قول الله تعالى: ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بأن لهم الجنـة﴾. وتقدم فقاتل الفرنج حتى قُتل... وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق أن بعض العلماء حكى له أنّه رأى الفندلاوي في المنام فقال له ما فعل الله بك وأين أنت؟ فقال غفر لي، وأنا في جنات عدن على سُرر متقابلين».

تحدث أيضاً سبط ابن الجوزي عن حصار دمشق في كتابه «مرآة الزمان» وركّز على إبراز أثر العقيدة في الحرب الدائرة لدى الطرفين، وأشار إلى ما فعلته في النفوس، فقال: ... وكان زمان الفـواكـه، فنـزل الفرنج الوادي فأكلوا منها شيئاً كثيراً، فأحلت أجوافهم ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون. ولما ضاق بأهل دمشق الحـال أخـرجوا الصدقات بالأموال على قدر أحوالهم، واجتمـع الناس في الجامع، الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف عثمان وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله لهم. فكان من الافرنج قسيس طويل اللحية يقتدون به، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق، فركب حماره، وعلق في عنقه صليباً،

وجعل في يديه صليبين، وعلّق في عنق حماره صليباً، وجمع بين يديه الأنـاجيل والصلبـان والخيالـة والـرجالة. ولم يتخلف من الفـرنجية أحـد إلاّ من يحفظ الخيام. وقـال لهم القسيس «قد وعـدني المسيح أنني أفتـح اليوم». وفتـح المسلمـون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام، وحملة حملة رجل واحد. وكـان يوماً لم ير في الجاهلية والإسلام مثله. وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس وهو في أول القوم، فضربه فأبان رأسه وقتل حماره».

كانت هزيمة الفرنج في حصارهم لدمشق أكبر علامات فشل حملتهم الثانية. وقد شجر النزاع بينهم أثناء الحصار. ولم يلبث أن هزم كونـراد ومـرض ورجع مسربلاً بالعار إلى ألمانيا. وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا. وارتاعت أوروبا لما حدث من إخفاق شنيع. وشرع النقاد يهاجمون «القديس برنار» ويصفونه بأنه خيالي متهور، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم. وأخذت الشكوك الفلسفية التي أشاعها «ابلار» تجد من يعبِّر عنها حتى بين عامة الشعب، وسرعان ما خبت جذوة التحمس ـ كما يقول ديورانت ـ للحرب الصليبية.

* * *

برز إبّان حصار دمشق اسم نور الدين محمود الذي لبّى مع

أخيه الأكبر سيف الدين غازي دعوة حاكمها معين الدين أنر لنجدة المسلمين فيها. ويورد ابن الأثير أن معين الدين أرسل إلى الفرنج الغرباء يدعوهم إلى الرحيل حين وصلته النجدة وقال لهم: «إن ملك المشرق قد حَضَر، فإن رحلتم وإلّا سلمت البلد إليه، وحينئذ تندمون وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا ـ يقصد الفرنج الغرباء ـ وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية؟ وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين. وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام، فأجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان. . .».

كان نور الدين محمود الابن الثاني لعماد الدين زنكي. وقد حكم حلب بعد وفاة والده سنة ٥٤١هـ، بينما حكم أخوه سيف الدين غازي الموصل. وكان آنذاك في الثلاثين من عمره، وقد تفقه في الدين ونشأ مجاهداً في سبيل الله يجيش قلبه بالإيمان ويحلم لجمع كلمة المسلمين والانتصار على الغزاة الافرنج.

عمل نور الدين ما بوسعه لتحقيق هذا الحلم على مدى ثمانية وعشرين عاماً حتى توفي عام ٥٦٩هـ وهو على مشارف الستين. وقد حقق الله الكثير على يديه. وحين نسترجع المعارك التي خاضها ونتعرف على مسيرة حكمه نحيط بعظمته.

ويكفي أن نراجع تاريخ ابن خلدون لنرى كيف واجه سنة ٥٤١هـ محاولة الفرنج استرجاع الرها، حيث سارع إلى المدينة واستخلصها منهم. وقد شارك مع أخيه سنة ٥٤٣هـ في انتصار دمشق على الفرنجة الذين حاصروها. ولم يلبث أن نازلهم قرب حلب «وهـزمهم وأثخن فيهم قتـلاً وأسـراً، وبعث من غنائمهم وأسراهم إلى أخيه سيف الدولة غازي والي المقتفي الخليفة».
وحين توفي أخوه سيف الدولة سنة ٥٤٤هـ وتولى أخوه قطب الدين مودود الموصل حرص على التفاهم معه «فانفرد هو بملك الشام وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة». وغزا في تلك السنة انطاكية «فعاث فيها وخرب كثيراً من حصونها، وبينما هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الافرنج وزحفوا إليه فلقيهم وحاربهم، وأبلى في ذلك الموقف فهزم الافرنج وقتل البرلس صاحب انطاكية وكان من عتاة الافرنج». وسار نور الدين سنة ٥٤٥هـ «إلى حصن فاميا بين شيزر وحماة وهو من أحسن القلاع فحاصره وملكه. . . ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازياً إلى بلاد زعيم الافرنج وهي تل باشر وعنتاب وعذار وغيرها من حصون شمالي حلب. . . وانهزم الافرنج واثخن المسلمون فيهم بالقتل والأسر».

كان على نور الـدين محمود وهو يخوض هذه المعارك أن يتصدى لما يصيب بلاد المسلمين من وهن. وقد حدث أن أوغل الفـرنجة سنة ٥٤٥هـ ـ ١١٥١م في أرض حوران، فأسرع نور

الـدين ليدفعهم عنهـا، وكتب إلى مجد الدين أبق الذي تولى دمشق بعد معين الدولة أنر عارضاً التعاون معه، ومطمئناً إياه وهو قرب دمشق «إنني ما أردت بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهـل حوران العربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم». وكان الافرنج سنة ٥٤٨هـ قد ملكوا عسقلان من يد العلوية خلفاء مصر ـ على حد قول ابن خلدون. «واعترضت دمشق بين نور الدين وبينهما فلم يجد سبيلاً إلى الدفاع عنها. واستطال الافرنج على دمشق بعد ملكهم عسقلان. . . وكان بها يومئذ مجير الدين واهن القوى مستضعف القوة فخشي نور الدين عليها من الافرنج. . . وبدأ أمـره بمـواصلة مجير الـدين ومـلاطفته. . . وكاتب جماعة من أحـداثهـا فلمـا وصل ثاروا بمجير الدين. . . وملك نور الدين المدينة» وذلك في مطلع سنة ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م.

أصبحت دمشق عاصمة نور الدين، فبدأت المرحلة الثانية من تاريخـه الحافل، وهي مليئة بالانتصارات والانجازات على مدى عشرين سنة. وقد عبرت عن نضج الصحوة ومهدت ليومي حطين والقدس. وهي تستحق حديثاً خاصاً نقف به عندها.

٦ ـ عن نور الدين والرئاسة الصالحة والنصر

ما أعـظم الجهد الذي بذلته أُمتنا بعد افاقتها وهي تجاهد الغزاة الافرنج كي تصل إلى يومي حطين والقدس. وما أروع ما حققه هذا الجهد بقيادة نور الدين محمود بعد أن أصبحت دمشق عاصمتـه سنـة ٥٤٩هـ ـ ١١٥٤م. وما أفيد دراسة هذه الفترة، وأمتع العيش مع سيرة نور الدين العظيم وهو يقود جهاد الأمة على مختلف الصعد.

إن دراسة هذه الفترة تبين الصلة الوثيقة بين الأمة حين تفيق وتصحـو وتنهض وقيادتها التي تُعبِّر عن ذلك كله وقائدها الذي يُجسِّد الرئاسة الصالحة. ورحم الله الوزير نظام الملك الذي رأى أن الحرمان من الرئاسة الصالحة غضب من الله وخذلان. ورحم الله الفارابي الذي قال إن نسبة الرئيس إلى المدينة الفاضلة كنسبة القلب إلى الأعضـاء، أو كنسبة السبب الأول للموجودات... هكـذا المـدينة الفاضلة فإنها متعلقة بوجودها وشرائعها وكمالها برئيسها الأعلى، ولا بد أن يتصف هذا الرئيس بكمال العقل وبقوة المخيلة. وتقـدم دراسـة هذه الفتـرة لنا فيما تقدم مثلاً للحكم بالإسلام وما يتضمنه من قيم العمران البشري. وكم هو مفيد أن

يتعرف عليه ويقف أمامه أولئك الذين لا يعرفون حكماً بالإسلام حدث بعد الخلافة الراشدة، لأنهم لم يدرسوا تاريخهم.

لقد ألحت عليّ كلمتا نظام الملك والفارابي مع كلمات أخرى لفلاسفة من مختلف الأمم حول الرئاسة الصالحة، لأن نور الدين قدم المثل الحي على هذه الرئاسة الصالحة. وحين فكَّرتُ في كيفية عرض هذه الفترة من تاريخنا بايجاز وهي حافلة، وجدتُ أن خير مدخل لهذا العرض التأمل في ما كتبه مؤرخونا عن الرجل حين انتهى بهم الحديث إلى وفاته سنة ٥٦٩هـ وإجمال أعماله، ونختار نموذجاً لما كتبه صاحب «الكامل في التاريخ».

* * *

يقول ابن الأثير: «في هذه السنة (٥٦٩هـ - ١١٧٤) توفي نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر..» ونقف أمام هذه الرقعة الجغرافية لنلاحظ أن وحدةً فعلية قامت بين هذه البلاد لأول مرةٍ منذ أن ابتليت الشام والجزيرة بتطاحن القواد السلاجقة الذين حكموا مدنهما في ظل وحدة اسمية تحت اللواء العباسي، وتباعدت الشقة بين بغداد والقاهرة بفعل وجود خلافتين عباسية وفاطمية. وقد سجل ابن خلدون هذا الحدث في تاريخه بقوله: «وكان قد اتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما ملكها سيف الدولة بن أيوب».

ويقـول ابن الأثير: «وكـان مولده سنة ٥١١هـ ـ ١١١٧م، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله. وقد طالعت سير الملوك المتقـدمين، فلم أر فيهـا بعـد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل. وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم». ونقف أمام صفة العـدل التي أبـرزها ابن الأثير وأجمل بها صفات أخرى. وقد انطلق منها ليتحدث عن «زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يتصرف في الذي يخصه إلّا من ملك كان له قد اشتـراه من سهمـه من الغنيمـة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. ولقـد شكت إليه زوجتـه الضـائقة، فأعطاها ثلاث دكـاكين في حمص كانت له، منهـا يحصـل له في السنة نحو عشرين ديناراً، فلما استقلتها قال: «ليس لي إلّا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهـنـم لأجـلك». وكـــان يصلي كثيراً بالليل، ولــه فيه اوراد حسنة... وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر». ونقف أمام البعد عن التعصب الذي هو من سمات العلم، ونذكر قوله حين بلغه أن فقهاء حلب اختلفوا مرة في اختيار شيخ لمدرسة: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلّا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهـار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق».

وأشار عليهم بأن يتولى كل من الشيخين المختلف عليهما مدرسة يُدرس فيها. وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده، على سعتها، مكساً ولا عُشراً بل اطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل. وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها. وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو القاضي فيها ينصف المظلوم، ولو أنه يهودي، من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده. وأما شجاعته فإليها النهاية. وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين (أي كنانتي سهام) ليقاتل بها. فقال له القطب النشاوي الفقيه: «بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين. فإذا أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلّا أخذه السيف» فقال له نور الدين: «ومن محمود حتى يقال له هذا؟ من قبلي من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو». وأما ما فعله من المصالح، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها. فمنها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها. وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية. وبنى الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات (المستشفيات) والخانات (محطات القوافل) في الطرق. وبنى الخانقاهات (الزوايا) للصوفية في جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة. وكان يلزم العلماء وأهل الدين ويعظهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلبهم معه وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط

يده. وكان وقوراً مهيباً من تواضعه. وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب».

لقد أسهب أبو شامة في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» في الإشادة بنور الدين ووصف مآثره، ومما ذكره أن نور الدين أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه. وقد أمر أن تكتب رقعة بهذا المعنى يسيرها إلى الأطراف، وكتب بخطه على أسفل الرقعة «مقصودي ألّا يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل؟ قلة عقل عظيم». وشبَّه أبو شامة نور الدين وصلاح الدين بالعمرين، واعتبرهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين. ووصف مجلسه بأنه كان كما ورد في صفة مجلس رسول الله (ص) مجلس علم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، فكان لا يذكر فيها إلّا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ولا يتعدى هذا. وتحدث النعيمي في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس» عن دور الحديث التي انشأها نور الدين. كما نوه بأعماله الجليلة العماد الكاتب في أول كتابه «البرق الشامي». وقد تتبع ابن خلدون أخباره وغزواته وأعماله. ومما أورده عنه أنه حين كان يغزو الافرنج في حارم «عزل نور الدين رجلاً يعرف بابن نصري تنصَّح له بكثرة خرجه بصلاته وصدقاته على الفقراء

والفقهاء والصوفية إلى مصارف الجهاد، فغضب وقال لا أرجو النصر إلاّ باؤلئك فإنهم يقاتلون عني بسهام الدعاء في الليل، وكيف اصرفها عنهم وهي من حقوقهم في بيت المال ذلك شيء لا يحل لي». وسجل ابن خلدون له أنه كان معتنياً بمصالح المسلمين مواظباً على الصلاة والجهاد متحرياً للعدل متجافياً عن أخذ المكوس في جميع أعماله. وقد وفق حسين مؤنس إلى رسم صورة دقيقة لنور الدين في كتابه «نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق» في فصل صورة مجاهد. كما وفق محمود إبراهيم إلى الأمر نفسه في كتابه عن شعر ابن القيسراني الذي لازمه.

* * *

قام نور الدين بعد أن أصبحت دمشق عاصمته سنة ٥٤٩هـ بمتابعة غزواته لقلاع الفرنج فاستولى على تل باشر في السنة نفسها وحاصر قلعة بهرام قرب انطاكية سنة ٥٥١هـ وحرّر نصف أعمال حارم ثم استولى على حصن شيزر قرب حماه. وواجه بالإعمار ما خربته الزلازل التي وقعت بالشام وخربت أكثر مدنه سنة ٥٥٢هـ. ثم استولى على بعلبك ومن بعدها على قلعة حارم سنة ٥٥٩هـ فقلعة بانياس. ولم يلبث أن التفت إلى مصر التي كانت دولة العلويين فيها «قد أخذت في التلاشي وصارت إلى استبداد وزرائها على خلفائها» على حد تعبير ابن خلدون. وكان

الصراع قد نشب بين شاور وضرغام، وقد استنجد الأول بنور الدين حين أخرجه الآخر من مصر، فاختار نور الدين من امرائه لذلك «أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي وكان بحمص وجهزه بالعساكر فسار لذلك في جمادى سنة تسع وخمسين وابتعد نور الدين إلى أطراف بلاد الافرنج فشغلها عن التعرض للعساكر. وسار أسد الدين مع شاور، وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب، وانتهوا إلى بلبيس»، كما يروي ابن خلدون. وشهدت مصر أحداثاً كثيرة بين عام ٥٥٩هـ و ٥٦٤هـ انتهت بقتل شاور بعد أن قتل ضرغام ويطرد الافرنج عن مصر، وبتولي أسد الدين الوزارة للخليفة العاضد، ثم بقيام صلاح الدين ابن أخيه مكانه بعد وفاته، وهو في طاعة نور الدين محمود. «فكتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بإقامة الدعوة العباسية بمصر والخطبة للمستضيء... فخطب للمستضيء العباسي وانقرضت الدولة العلوية بمصر وذلك سنة سبع وستّين». كما سجل ابن خلدون، وتابع نور الدين أثناء ذلك غزواته للفرنج في حصونهم حتى انتقل إلى رحمة الله. وكان لدخول مصر في دولة نور الدين دويٌّ بعيد لا في مملكته بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله.

* * *

حين نتأمل في صورة هذا المجاهد الصادق الذي عبّر عن

الصحوة بأروع معانيها نجد أنفسنا أمام رجل مؤمن وضع نصب عينيه حماية الدين وتوحيد البلاد وعمل ما بوسعه لبلوغ ذلك بغية صدِّ الغـزاة الفرنجة فنجح نجاحاً عظيماً وحقق الله الكثير على يديه. وكان إيمانه بعيداً عن التعصب. وقد حارب الفرنجة لأنهم غزاة وليس لأنهم من دين آخر. وكان يرعى النصارى من مواطنيه ويحيمهم. وفـرض إيمانه على أعدائه أن يحترموه، فكانوا كما روى أبـو شامـة يقـولون «إن لهُ مع الله سر». وقد اعترف وليم الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس بفضله وعدله وصدق إيمانه.

نجد أنفسنا أيضاً أمام حاكم انطلق بهذا الإيمان في سياسة تقوم على البناء. فكان أن توسع في إنشاء المدارس. وكان شديد الاهتمام بأهل الحل والعقد. واعتنى بإنشاء المستشفيات وبحفظ الطرق. واعتمد العدل في حكمه.

نجد أنفسنا كذلك أمام قائد عسكري حرص على أن يكون تكـوينـه العسكري ممتازاً، ولم يكف أبداً عن التدريب ودرس التخطيط العسكري. وأبدع في سياسة الجند وفق نظام عملي. كمـا أبـدع في سياسـة القبـائل البدوية. ووضع نظاماً محكماً للاتصال ونقل الأخبار مستعيناً بالحمام الزاجل. ووفق إلى اختيار معاونيه فاعتمد على نفرٍ من اكفأ القادة. وكان دائـم التنقل بيِّن في

أرجـاء دولته. وقد أظهر مهارة في شؤون الإدارة والمال معتمداً الشرع أساساً للحكم.

نجـد أنفسنا أمام إنسان يعطي بيته حقه من الرعاية يتكلم العربية وقد استعرب لساناً وقلباً، طويل القامة وسيم القسمات.

بقي أن نقـول إن صورة هذا المجاهد الصادق رمزت إلى صورة مجتمعه الذي عاش الولادة الجديدة وتبنى عقيدة الجهاد ذوداً عن الـوطن وصداً للغزاة المعتدين. وصورة هذا المجتمع تستحق حديثاً خاصاً.

* * *

لا أذكر إنني حللت بدمشق زائراً إلّا ووجدت نفسي منجذباً لزيارة المـدرسـة النورية حيث استذكر تاريخ نور الدين، وأقرأ الفاتحة عن روحه الطاهرة، وأرى من خلال سيرته قدرة امتنا على صد الغزاة الصهاينة إذا تبنت عقيدة الجهاد، وسارت في الطريق إلى حطين والقدس.

٧ ـ عن تنظيمات الفرنجة الدينية العسكرية

أكتب وانتفاضة شعبنا العظيمة في أُسبوعها الثاني والثلاثين ونحن نعيش أجواء عيد الفداء في «زمن الانتفاضة». وقد شهدت منطقتنا يوم الاثنين ١٨/٧/١٩٨٨ حادثاً له ما بعده هو إعلان إيران قبولها غير المشروط قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨، وما أعظم الخير الذي سيعم منطقتنا وما أروع المناخ الذي سيحيط بالانتفاضة إذا انتهت الحرب العراقية الإيرانية، فلتتكثف الجهود لكي يأخذ هذا الحادث مداه ويبلغ غايته ويعم السلام الخيلج، ولِتَعُمَّ روح الانتفاضة.

وجدت نفسي مدعواً وأنا أُتابع أخبار الانتفاضة هذا الأسبوع إلى أن أُولي موضوع المستعمرين المستوطنين الصهاينة اهتماماً خاصاً. فالدور الذي يقومون به في العدوان على أهلنا والجرائم التي يقترفونها يومياً تطرح موضوعهم بقوة، وقد جاءت مصدقة لما توقعناه منذ الشهر الأول للانتفاضة على صعيد العدو من نزوع إلى أقصى درجات التطرف رأينا أنه سيحدث وبخاصة بين هؤلاء المستعمرين المستوطنين. وأذكر أننا في توقعنا هذا استحضرنا ما حدث حين صحا قومنا إبّان الغزو الفرنجي فظهرت في أوساط

الفرنجة تنظيمات متطرفة أشهرها فرسان «الاسبتارية» وفرسان «الداوية» كما أسماهم أجدادنا.

دعاني تفكيري في هذا الموضوع وأنا اعيش أجواء عيد الفداء في زمن الانتفاض في هذا الصيف الحار أن أراجع ما كتبته قبل عام بمناسبة ذكرى مضي ثمانية قرون على انتصارنا في حطين، وانصرف إلى قراءة ما حفظه تاريخنا عن هذه التنظيمات المتطرفة كي نستخلص عبراً تساعدنا على معالجة الموضوع. ورأيت أنه قد آن الأوان لأتابع أحاديثي التي تحمل عنوان «في الطريق إلى حطين والقدس» ونصب عيني أن تصل بنا الانتفاضة وقد سلكت هذا الطريق إلى حطين والقدس بإذن الله.

كثيرة هي أوجه المشابهة بين المستعمرين المستوطنين الصهاينة وفرسان الفرنجة الغزاة، ونحن نجدها في المنشأ والمسار والدور، وسنجدها إن شاء الله في المصير حين تبلغ الانتفاضة هدف التحرير.

جاءت نشأة تنظيمات فرسان الفرنجة بعد أن حلت بأمتنا نكبة سنة ١٠٩٩م - ٤٢٩هـ، وقامت «مملكة أورشاليم اللاتينية». وكانت هذه المملكة مملكة غزاة غرباء عن المنطقة، وقد حُرِّم فيها المذهب الأرثوذكسي الشرقي الذي يتبعه أخوتنا النصارى العرب، وقد كان في المملكة كثير من أسباب الضعف

فظهرت الحاجة فيها إلى وجود تنظيمات تعاون حكامها الغزاة، وبخاصة بعد أن ظهرت مقاومة قومنا للغزوة الفرنجية التي تفننت في الظلم حتى أخذ سكان البلاد النصارى ـ كما يقول ول يورانت في قصة الحضارة ـ «ينظرون بعين الحسرة إلى الحكم الإسلامي ويعدونه من العصور الذهبية التي مرت بالبلاد».

كان تنظيم فرسان مستشفى القديس يوحنا هو الأول في النشوء. فقد نظّم «ريموند دو بي» العاملين في مستشفى فرنجي يحمل اسم القديس يوحنا، وجعلهم هيئة دينية عسكرية حوالي عام ١١١٨م. وكان بعض التجار الفرنجة قد حصلوا على اذن عام ١٠٤٨م من الحكم الإسلامي لبناء هذا المستشفى كي يؤوي الفقراء والمرضى من الحجاج النصارى الأوروبيين. واشتهر أفراد هذه الهيئة الدينية في الغرب باسم فرسان القديس يوحنا، أما أهلنا فأسموهم «الاسبتارية» نسبة للمستشفى. وحدث بعد ذلك بقليل عام ١١١٩ أن حصل «هيو دو بايان» الفارس الفرنجي الذي دخل في سلك الرهبنة على مسكن من بلدوين الثاني ملك القدس بالقرب من الموضع الذي كان فيه هيكل سليمان وأنشأ تنظيماً أسماه «فرسان المعبد» وعرفه أهلنا باسم «الداوية». واعترفت الكنيسة الكاثوليكية بهذا التنظيم، ووضع له القديس «برنار» نظاماً صارماً يتضمن حلق الرؤوس وعدم الاغتسال إلّا نادراً. وكان يُحرِّض فرسان المعبد على أن يقتلوا

وهم مرتاحو الضمير. واعتمد «الاسبتارية» لبس مئزر أسود على كمه الأيسر صليب، أما «الداوية» فكانوا يلبسون مئزراً أبيض على حرملته صليب أحمر. ثم حدث في عام ١١٩٠م أن أنشأ الألمان «الفرنجة» طائفة الفرسان التيوتون، وشادوا لهم مستشفى قرب عكّا.

قامت هذه التنظيمات بدور خاص في حروب الفرنجة. وكانت كل من الاسبتارية والداوية تكره الأخرى كرهاً مبعثه التعصب، وقد احتلتا معاً مكان الصدارة والزعامة في نشاط الرهبان الفرسان. وأصبح لهما شأن ظاهر في المعارك وذاعت أخبار الفظائع التي يقومون بها. وساعد على خطورة الدور الذي نهضوا به كما يقول «سعيد عاشور» أنهما تمتعا باستقلال ذاتي فلم تخضعا لملك الفرنجة في بيت المقدس وإنما تبعتا بابا روما مباشرة. وعظمت ثروات هذه التنظيمات فبنوا مجموعة قلاع وحصون اتخذوا منها معاقل لهم. واتصفت أعمالهم بالعنف والضراوة والتعصب والتطرف وانطلقوا في القيام بعدوانهم المتصل على أهل البلاد من عقيدة مشبعة بالكراهية. وكانوا يقتلون كل أسير من المسلمين يقع بين أيديهم، ولا يحترمون موثقاً، وينقضون العهود. وقد جمعوا أموالاً طائلة فتملكوا أيضاً في أوروبا. وعاشوا في قلاعهم وحصونهم حياة ترف وسط متاعب

الحروب، «مع إنهم كانوا قد نذروا أنفسهم للفقر» كما يلاحظ ديورانت.

أصبحت هذه التنظيمات مع الزمن وازدياد قوتها في أوساط الفـرنجة دولة داخل دولة، وأخذت مع مرور الوقت تتدخل في أمور كثيرة وتتخذ مواقف منفردة، الأمر الذي أثار تناقضات حادة في أوساط الفرنجة وكان على المدى الطويل من أسباب انهيار البناء الذي أقاموه في بلادنا، كما يقول بعض المؤرخين الأوروبيين.

كان طبيعياً أن يتصدى أهلنا لهؤلاء، وأن ينزلوا العقاب بهم على ما اقترفته أيديهم من جرائم حين دارت الدائرة عليهم. ويذكر ابن الأثير في «ذكر انهزام الفرنج بحطين» كيف أسر صلاح الدين عدداً من قادة الفرنج من بينهم «مقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأناً»، وأسر المسلمون «جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم . . » وكان من بين أسرى صلاح الدين أرناط صاحب الكرك «ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين». ويقول القاضي ابن شداد في «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» «وأما مقدمو الاسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم. وأما البرنس ارناط فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله. وذلك

أنـه كان عبـر به بالشـوْبـك قَفْـل من الديار المصرية في حالة الصلح، فنـزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبلغ ذلك السلطان، فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله. ولما فتح الله عليه بالنصر والظفر، جلس السلطان في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نُصبت، والنـاس يتقـربون إليه بالأسرى، وبمن وجدوه من المقدمين».
ويمضي ابن شداد في وصفـه هذا المشهـد فيقـول: «ونصبت الخيمـة، وجلس فرحـاً مسـروراً شاكراً لما أنعم الله عليه، ثم استحضـر الملك جفـري وأخـاه البـرنس ارناط، وناول الملك جفري شربة من جُلاب بثلج، فشرب منها، وكان على أشد حال من العـطش، ثم ناول (الملك الفرنجي) بعضها البرنس ارناط فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي تسقيه وإلا أنا ما سقيته. وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَنْ أسره أَمن، فقصد بذلك الجري على مكـارم الأخلاق... واستحضر السلطان البرنس ارناط وقال له «هـا أنا استنصر لمحمد عليه الصلاة والسلام، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل. ثم سلّ النمجاه (الخنجر المقوس) وضربه بها، فحلَّ كتفه وتممَّ عليه من حضر، وعجَّل الله روحه إلى النار».

لنا أن نقف أمام هذا المشهد متأملين. وسنلاحظ أن ارناط كان قد نقض العهود مراراً وهدد بغزو البيت الحرام بعد أن تحصَّن بالكرك. وكان معروفاً عـن صلاح الدين أنه كما يقول ابن الأثير «كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح». وقد نجم عن ذلك أحياناً عودة من صفح عنهم من الداوية والاسبتارية إلى حربه الأمر الذي دفع ابن الأثير إلى التعليق على ما جرى في صور وكوكب بعد حطين بالقول «وكان ذلك كله بتفريط صلاح الـدين في اطـلاقه كلَّ من حصره حتى عضَّ بنانه تدماً» ولكن الله أنعم عليه بفتح كوكب وصفد وبالسير من ثم إلى بيت المقدس فعيَّد فيه عيد الأضحى سنة ٥٨٤هـ. ويلفت نظرنا في رواية ابن شدَّاد تقديم الجلاب المثلج بالثلج في شهر تموز البالغ القيظ، الأمـر الـذي يدل على مدى تقدم جيش العرب المسلمين في النواحي الإدارية.

لقـد كان مصير هذه التنظيمات الدينية العسكرية الفرنجية إلى سوء الختام. فبعد أن انتصر عليها قومنا وهزموها، فرّ فرسان المعبد الداوية إلى قبرص ورودس وأصبحوا يعرفون باسم فرسان رودس، وظلوا يحكمـون الجزيرة حتى طردهم منها العثمانيون عام ١٥٢٢م، فانتقلوا منها إلى مالطة. وعاد بعضهم إلى بلاده الأوروبية وحـاول فرسـان المعبد أن ينافسوا الملوك في الحكم فكان أن قبض فيليب الرابع الجميل عام ١٣١٠م على جميع من

كان في فرنسا منهم دون سابق إنذار، وصادر أملاكهم واتهمهم بأفظع التهم وأذاقهم من ويلات التعذيب ثم أحرق من لم يمت منهم. وأيد رجال الدين الفرنسيين الملك في موقفه على الرغم من إحتجاج البابا. وتم الغاء نظام فرسان المعبد عام ١٣١٢م.

* * *

إن استحضارنا لنشأة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في بلادنا فلسطين منذ بداية الغزوة الصهيونية وتتبعنا لمساره، وتأملنا في الدور الذي يقوم به، يصل بنا إلى وضع أيدينا على أوجه المشابهة بينه وفرسان الفرنجة الغزاة. ويلفت النظر أن مرحلة ما بعد ١٩٦٧م في الغزوة الصهيونية شهدت انتعاش فكرة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني والعمل على اغتصاب جُلِّ الأراضي العربية التي تم احتلالها. وظهرت على الساحة تنظيمات عسكرية صهيونية دينية من بينها غوش امونيم وكاخ وظهر أمثال الحاخام كاهانا والحاخام بيرلنغر. وهاهم المستعمرون المستطنون الصهاينة ينتقلون في مسارهم من التطرف إلى أقصى درجات التطرف، ويقترفون أبشع الجرائم ضد أهلنا تحركهم عقيدة عنصرية تقوم على الكراهية والجشع والعدوان.

طبيعي أن نتصدى اليوم للاستعمار الاستيطاني الصهيوني كما تصدى أجدادنا من قبل لتنظيمات الفرنجة الدينية العسكرية

ولا بد أن نضع نصب أعيننا معاقبة كل مستعمر مستوطن صهيوني على ما اقترفته يداه من جرائم. وثقتنا أن أمتنا المتمثلة روح الانتفاضة ستكون قادرة على ردع عدونا، تماماً كما أننا واثقون من أن انتفاضة شعبنا العظيمة قادرة على مواجهة هؤلاء المستعمرين المستوطنين الصهاينة، وهي تُدلِّل كل يوم على هذه القدرة بأشكال مختلفة.

إن ما تنتظره الانتفاضة منا ونحن نستخلص عبر جهادنا الغزو الفرنجي أن نلتزم الطريق الذي سلكه أجدادنا إلى حطين والقدس، ونتجمَّل بالصبر ونحن نقوم بفريضة الجهاد، ولا نتزحزح قيد أُنملة عن اعتبار الغزاة غزاةً وتسمية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني باسمه. والغزاة الصهاينة لم يكونوا قط شعباً تماماً كما أن اليهود ليسوا شعباً وإنما هم اتباع دين ينتمون إلى أوطان كثيرة هم مواطنون للدول التي تقوم فيها، وليس لهؤلاء الغزاة الصهاينة أية روابط تاريخية بوطننا فلسطين.

إننا لا نزال في مرحلة مواجهة مع عدونا. وستستمر هذه المرحلة إلى أن يسلم بحقوقنا. ولا مجال قبل أن يفعل ذلك لأي انشغال عن متطلبات المواجهة. ولا مجال بعد أن يفعل ذلك ـ وسيفعله بإذن الله ـ لأن ننفي عنه صفة المستعمر المستوطن الصهيوني. وحاشا لأحد منّا أن يقر بوجود شعب يهودي له دولته، لأن ذلك يتنافى مع الحقيقة. ولنركز جهودنا على هزيمة

التنـظيمـات الصهيونية العسكـرية الـدينية كمـا هزم أجـدادنـا الاسبتـارية والـداوية، ولنتـوقـع لهذه التنظيمات المصير الذي انتهت إليه تنظيمات الفرنجة.

كتب للمؤلف

١ـ الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر	١٩٦٧
٢ـ أحاديث عن تاريخ ليبيا خلال القرنين ١٨ و ١٩	١٩٦٨
٣ـ من المقاومة إلى الثورة الشعبية في فلسطين (إسبوعيات المقاومة)	١٩٦٩
٤ـ ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي	١٩٧٠
٥ـ عبد الحميد الثاني في التاريخ (نشر فصولاً)	١٩٧١
٦ـ هذه الليلة الطويلة (مسرحية)	١٩٧١
٧ـ عبد الناصر والثورة العربية	١٩٧٢
٨ـ ماذا بعد حرب رمضان	١٩٧٤
٩ـ وثائق تاريخ ليبيا ـ الوثائق العثمانية (مشاركة)	١٩٧٦
١٠ـ بدايات اليقظة العربية الحديثة في ليبيا ـ وثائق	١٩٧٦
١١ـ الحوار العربي الأوروبي ـ وجهة نظر عربية ووثائق	١٩٧٦
١٢ـ العرب وتحديات المستقبل (إسبوعيات المقاومة)	١٩٧٦
١٣ـ الفلسطينيون في الوطن العربي (مشاركة)	١٩٧٨
١٤ـ نظرات في تاريخ فلسطين (نشر فصولاً)	١٩٧٨
١٥ـ رحلات ولحظات ممتدة	١٩٧٩

٣١ـ الانتفاضة الفلسطينية والتحرير ١٩٨٩
(إسبوعيات المقاومة)

٣٢ـ مدرسة عربية في علم السياسة ١٩٨٩
(إسبوعيات المقاومة)

٣٣ـ الانتفاضة الفلسطينية وإدارة الصراع ١٩٩٠
(إسبوعيات المقاومة)

٣٤ـ وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية ١٩٩١
في عالم مترابط

٣٥ـ الانتفاضة الفلسطينية وزلزال الخليج ١٩٩١
(إسبوعيات المقاومة)

٣٦ـ عن المستقبل برؤية مؤمنة

تحت الطبع

فهــرس



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبارك أرض فلسطين. والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وخاتمهم محمد بن عبد الله.

أما بعد، فهذه أحاديث بدأت كتابتها في صيف عام **١٩٨٧** الميلادي بمناسبة مضي ثمانية قرون ميلادية على يوم حطين ويوم القدس، وهما يومان مجيدان من أيامنا العربية الإسلامية.

كان نصب عيني وأنا أكتب أن أُبشِّر بصحوة رأيت تباشيرها تحدث في أوساط أمتنا في مواجهة الغزوة الصهيونية الاستعمارية. وقد أقبلت على التعريف بهذه الصحوة في محاضراتي وكتاباتي متطلعاً إلى أن تتجسد في فلسطين المحتلة. وشاء الله سبحانه أن يعطي يوم التاسع من كانون أول ـ ديسمبر من عام **١٩٨٧** شرف مولد الانتفاضة الفلسطينية فيه، فيصبح هو الآخر من أيامنا العربية الإسلامية المجيدة.